أمير المؤمنين يلقي درساً دينياً
في ختام الدروس الدينية لشهر رمضان المعظم
شرح به جلالته قول الله تعالى

(انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً).

الحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيىء لنا من أمرنا رشداً.

رب، قد آتيتني من الملك، وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قال الله سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب : بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم «انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض، والجبال، فأبين أن يحملنها، واشفقن منها، وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً»

حضرات السادة :

جرت العادة منذ أن بدأنا نحيي ليالي رمضان بذكر قول الله سبحانه وتعالى وتفسيره بترويج أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، أن نشارككم شيئاً ما في اختتام هذه الأحاديث، ولم تكن مشاركتنا مشاركة ندلكم، من حيث التعليم والصناعة والفقه والحديث، ولكن مشاركتنا لكم لها أساسان :

الأساس الأول : إن النصيحة التي أوجبها الله على جميع المؤمنين في حق من ولاه الله أمرهم، أوجبها من باب التبعية على أمير المؤمنين الذي هو الأول بالنسبة لرعيته.

الأساس الثاني : وهو أن نحاول جهد المستطاع أن نظهر بتواضع وأن نستسمح الله فيما يمكن أن نرتكب من أغلاط، لكل شاب شاب، نشأ مثل نشأتنا، وتلقى مثل تربيتنا ودرس دراساتنا وتثقف على طريقتنا، إنه إذا فتح الله قلب الانسان وبصره وبصيرته أمكنه أن يدلي ولو بنصيب قليل في التعريف بالاسلام، وفي تفهيمه بطريقة عصرية واضحة غير تقنية ولا علمية.

وقبل أن نشرع في تفسير هذه الآيات، التي اعتبرها من أحكم آيات كتاب الله العزيز، أود أن أوجه

باسم جميع المستمعين والنظارة وباسم جميع المسلمين القانتين الصائمين إلى علمائنا، وعندما أقول علماءنا أعني علماء الاسلام، مغاربة كانوا أو غير مغاربة، أريد أن أشكرهم جزيل الشكر على ما قدموا من دروس وعلى ما فتحوا به أذهاننا من معلومات وعلى ما أتوا به، الشيء الذي سهل وسيسهل علينا أن نحيط أحسن الاحاطة بديننا وبسنة نبينا حتى لا تزيغ أقدامنا وحتى لا نرتكب الأخطاء، فلا خير في عالم إذا هو لم يعلم ولم ينتفع المسلمون بعلمه.

ولكن ولله الحمد، أبت عناية الله الا أن تهدينا إلى إحياء هذه السنة الطيبة الفاضلة باستدعاء علماء المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ليتذاكروا ويتباحثوا مثالا حيا لما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في أحد أحاديثه أو كما قال : أفضلكم الذين إذا رؤوا ذكر الله.

فأنتم معشر العلماء أولا بأحجامكم المحترمة، وبأفكاركم النيرة وبدروسكم الثمينة من أولئك الذين قال فيهم النبي صلى لله عليه وسلم : «أفضلكم الذين إذا رؤوا ذكر الله» فطوبى لكم وجازاكم الله عنا خير الجزاء.

منذ ثلاث سنوات قررنا أن نضع اللبنة الأولى لدار الحديث حتى نلقح علماءنا الشباب والكهول بلقاح جديد، وحتى نعطي لهذه المادة مادة الحديث معناها الحقيقي، فكنا نسمع بالمحدث الذي يعرف الأصول ويتقن كتاب الله حتى لا يلحن في كلام الله أو كلام رسول الله وعلى بال وبينة تامة من الفقه والقانون ولكن لم نكن نسمع محدثا يحاول أن يستنبط من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن آيات كتاب الله القواعد العصرية الفقهية التقنية العلمية التي من شأنها أن تجعل من مجتمعنا هذا مجتمعاً مثالياً للحضارة، بل يتقدم تلك الحضارة، لا مجتمعا راكدا أو يطلق عليه الناس انه مجتمع راكد.

ومع الأسف إذا حاولنا أن نحلل عناصر الانحلال في شباب الاسلام نجد أنه غير مسؤول عما هو عليه، لأنه في الحقيقة يجهل دينه ويجهل سنة رسوله ويجهل كتاب الله وبكل تواضع أريد هنا أن أعترف أنه من درس المكي الناصري بالأمس تعلمت الشيء الكثير كنت أجهله وقد فتح لي نافذة جديدة في ذهني والحالة هذه أنني كنت شغوفا بدراسة القانون وبالأخص دراسة القانون الاداري والدستوري، فإذا كانت حالتي هي هذه فكيف تكون حالة الملايين من الشباب الذين لا علم لهم بالعربية ولا بالآداب العربية ولا بالحديث ولا بالقرآن ؟.

فدار الحديث أول واجباتها أن تفتح الآفاق للبحث والتلقيح، وإنني في المستقبل سوف اشترط لدخول دار الحديث أن تكون للمرشحين الليصانص في الحقوق قبل أن تعطي لهم إجازات لأنه لا خير في فقيه إذا لم يعرف أسباب التشريع وإذا لم يعلم بروح المشرع، ونية المشرع، وما يريده المشرع.

فتلك هي فلسفة القانون وتلك الدراسات والمقارنات هي التي ستمكنكم من أن تكونوا علماء حقيقيين وتعميما لهذه الروح، روح التماسك والتسابق قررنا أن نجمع جميع المجالس العلمية بالمغرب أو المدارس لكي نعطي لكل واحد منهم في هذه المجالس نسخة من تفسير القرآن لابن عطية وأن نضرب لهم موعداً في رمضان المقبل حتى يتبارى كل العلماء، وتتبارى كل المدارس في الاتيان بباكورة عملها وبما اتبعته من التفكير والتصحيح.

وسوف يعطيكم وزير الأوقاف مصحوبا بوزير دولتنا في الشؤون الثقافية والتعليم الأصلي في حفل رسمي خاص هذه النسخ، حتى نرى عملكم إن شاء الله في السنة المقبلة. والآن لنرجع إلى الآية التي سنحاول تفسيرها



بعون الله وشرحها.

اعتبر أن هذه الآية منقسمة إلى قسمين في مبناها وفي معناها :

القسم الأول : قوله تعالى «انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها» «

القسم الثاني قوله تعالى : «وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا» وسنبين أن هذه الآيات مختلفة في المبنى والمعنى تمام الاختلاف ونبدأ أولا بشرح المفردات.

انا عرضنا، بمعنى عرض، فكان الله سبحانه وتعالى، وانا أجله عن هذا التمثيل، بمثابة إنسان له دكان عنده سلع وبضاعة ويعرضها على المشتري أو المقتني ...

«انا عرضنا الأمانة»، والأمانة هي ضد الخيانة يقال فلان خائن وضده فلان أمين والأمين هو الذي يحافظ على ما أؤتمن عليه ولو أدى به ذلك إلى أن يعرض نفسه وأهله وماله الخاص للخطر، إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال. فأبين، أبى بمعنى رفض وقد جاء لفظ الرفض لفعل « أبى» في القرآن في حق إبليس حينما أمره الله بالسجود فأبى واستكبر ولكن الفرق بين رفض الجبال والسماوات والأرض وبين رفض إبليس هو أن إبليس أبى واستكبر على الله سبحانه وتعالى.

أما الجبال ــ ابين واشفقن ــ أما الأول فقد أبى واستكبر بدون تعليل وأما السماوات والأرض والجبال أبين فأشفقن.

والاشفاق له معاني كثيرة يقول علماء اللغة ــ إنه الحذر وأنا باجتهادي الخاص أفضل الزهد فزهدن في المسؤولية أما الحذر ففيه نوع من الخوف وعدم التصرف ونوع من الاجبار، أما الزهد ففيه نوع من الحرية والاختيار، مثلما يقال عرضت على فلان القضاء فزهد بمعنى امتنع حينما قدر مقومات هذه المسؤولية، وحينما قدر راحته وراحة ضميره بعد اختيار مرير وطويل زهد في القضاء وزهد في الرتبة وزهد في الشهرة حتى يبقى في حل واستقامة وطمأنينة مع ضميره فأنا أفضل من الناحية اللغوية هنا لفظ الزهد على لفظ الحذر.

هذه الآية الأولى.

أما الآية الثانية : حملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا، حاولت أن أبحث في جميع القراءات هل سأجد حملها وحدها أو تحملها أو حملها بضم الحاء لكان المعنى منعكسا تماما لما سنحلله ولكن كانت القراءات كلها هي ــ وحملها الانسان ــ بفتح الحاء ــ أي حملها الانسان عن طواعية واختيار وحينما وصف بظلوم جهول كأنه يتهافت عليها وهو يطلبها من الله إنه كان ظلوما جهولا، ظلوم جهول هي صيغة المبالغة هل لكثرة ظلمه وجهله سمي ظلوما جهولا ؟

أنا أظن أنه لا ظلوما جهولا ــ لاستمراره في ظلمه وجهله لاستمراره كبشر، ولاستمراره كجنس بشري، كسلسلة تشد حلقتها الحلقة الأخرى منذ خلق الله آدام إلى يومنا هذا واستمراره في الظلم كبشر منذ ولادته إلى مماته، واستمرار آبائه من قبله وأبنائه من بعده، استمرار الجنس البشري هو الذي في نظري برر استعمال

صيغة المبالغة ظلوما جهولا.

هنا يمكن أن نسبح في بحر لا ساحل له، إذا فتحنا الباب لماذا لم يسبق جهولا على ظلوما لأن المسؤولية هل تقتضي أن الانسان يكون ظالما قبل أن يكون جاهلا أم تقتضي أن يكون جاهلا بالمسؤولية فيصير بذلك ظالما وعلى كل حال لن نفتح هذا الباب، لأنني كما قلت لكم هذه الصناعة وهذا الفن ليس من اختصاصاتي ولا أريد أن آتي ببدع في هذا الباب فالمعول على العلماء والفقهاء ليدرسوا هذا الباب وليأتونا بنتائجهم في هذا المضمار.

نحن الآن فسرنا هنا المفردات، فلنحاول أن نعمل هنا مقارنة بين الآية الأولى والآية الثانية.

المقارنة في المبنى كان الله سبحانه وتعالى وهو الذي يقول في كتابه بأنه يكرم ابن آدم كأنه في حديثه الطويل بالنسبة للجمادات والحالة انها ليست جمادات يطيل ويكرم السماوات والأرض والجبال ولا يكرم ابن آدم فالله سبحانه وتعالى يقول :

انا بجلالة قدرنا تنازلنا فعرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال.

وأتى سبحانه وتعالى برفضها ثم أتى سبحانه وتعالى بتبريرهن لرفضهن فكانت الجملة طويلة مفسرة محللة لنفسية الله سبحانه وتعالى لنفسية العارض والمعطي ولنفسية الرافض فكانت جملة طويلة شافية للبحث، ثم : قف. وبعد، نرى : «وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا» فكان القارىء يمكنه بل يجب عليه أن يقرأ الآية الأولى بشيء من البطء وبما أن الانسان خلق من عجل فكأنه يجب على القارىء أن يمر بسرعة على الآية الثانية لأن تركيبها وألفاظها وحروفها تتطلب الاسراع «وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا».

كل واحد يمكنه أن ينطق بهذه الآية بسرعة.

وأتحداه أن ينطق بالآية الأولى بسرعة، هذا هو الفرق من ناحية المبنى.

أما من ناحية المعنى لماذا اشفقت الجبال واشفقت السماوات والأرض وأبين المسؤولية والأمانة ولماذا حملها الانسان هل لأن السماوات والأرض والجبال جامدة والانسان متحرك ؟ لا.

هل لأن السماوات والجبال والأرض ميتة والانسان حي ؟ لا أبداً، لأن العلوم الحديثة اظهرت لنا أن السماوات والأرض والجبال متحركة حية، ولا حياة إلا بقدرة السميع العليم.

السماوات السبع والكواكب والنجوم وما يقع فيها وما يعرج إليها وما يتلقى السمع فيها والجراثيم التي نراها والتي لا نراها والحياة الميكروبيولوجية التي ربما تكون موجودة على سطح الأقمار وعلى سطح الكواكب والتي لا نعلمها. كل هذا يدل على أن السماء متحركة حية.

والأرض، نعلم الآن من العلماء الذين لهم شغف بالتنقيب عما في بواطن الأرض أن الأرض حية زيادة على أنها متحركة وكل منا يعلم أن الأرض تدور حول نفسها وأنها تدور حول الشمس، حسب قواعد كيبلر المنجم المشهور، «فكل في فلك يسبحون» «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار».

أما حياتها فهي حية، لأننا نرى مرات أراضي يخسف بها وتغطيها البحار ونرى جزراً تخرج من قعر البحار

ونرى جبالا تنزلق ومعلوم أن هذه العمليات وهذا التغير يكون على آلاف السنوات ولكن هذا يدل على حياة الأرض وحركاتها.

فإذا كان الانسان حيا وهذه المخلوقات الأخرى حية وكان الانسان متحركا وهذه المخلوقات الأخرى متحركة فما هو السبب في كون الله سبحانه وتعالى قبل من السماوات والأرض والجبال رفضهن للأمانة والحالة هذه أننا سمعنا في درس البارحة أنه إذا لم يوجد إلا إنسان ليوظف في وظيف معين وأبى أن يوظف فإنه يجلد ويسجن، ولكن لأن الله سبحانه وتعالى عنده أحسن من هذه الجمادات عنده الانسان.

الانسان الذي أهله لذلك.

الانسان الذي رباه على ذلك.

الانسان الذي باهى به بين ملائكته.

الانسان الذي أراد أن يستخلفه في الأرض.

الانسان الذي قال له سوف نعلمك الأسماء كلها، وسوف نعلمك كيف تكون هذه، وكيف تكون تلك وسوف نعطيك من السلاح وسوف نعطيك من العلوم ما يمكنك على الأقل في القرون الأولى أن تعيش حياة ممكنة على سطح الأرض.

قال تعالى في سورة البقرة : «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون»

فكأن الله سبحانه وتعالى حينما أناط بآدم المسؤولية أراد أن يظهر لملائكته أن آدم قادر على تحملها وذلك حينما تحداهم آدم واجتاز ذلك الامتحان ونجح.

فعندما يكون بالطبع آدم مؤهلا لخوض المعركة لحمل الأمانة،وفي نظري ان الأمانة هنا هي المسؤولية وسوف أتطرق إلى هذا الباب من بعد. من الطبيعي أن يمر عليه قول الله تعالى مر الكرام : «وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا».

الآن وقد حاولنا باختصار أن نشرح الفرق بين أباء السماوات والأرض والجبال واشفاقهن، وبين قبول بل تهافت بني الانسان على تحمل المسؤولية وقد شرحنا الأسباب التي — في نظرنا — دعت بآدم أن يتحمل المسؤولية ذلك لأن الله أهله بما لقنه من علوم ومعلومات، لنتطرق إلى الكنه والمغزى الحقيقي لهذه الآية ألا وهو لفظ الأمانة.

الأمانة في الاسلام :

الأمانة في الاسلام لا الأمانة الفقهية، لا الوديعة ولكن الأمانة المناط بها الاحسان، وهو الضمير المهني والمناط بها الايمان، والمناط بها المواطنة الصادقة، والمناط بها مسؤولية الراعي (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته).

وماهي مرتبة الأمانة من الواجبات الأخرى في الدين الاسلامي ؟

الأمانة هي من باب المعاملات سواء كانت خاصة أو كانت عامة ولا نرى ذكرا لمعاملة كيفما كانت لتكون من علامات قيام الساعة إلا فيما يخص ضياع الأمانة نعم نراها في ضياع العبادات أو أركان الاسلام الخمس أما في المعاملات لا نرى معاملة غير الأمانة يضرب بها موعد لقيام الساعة والصحيح في ذلك هو حديث مسلم الذي يحفظه كل واحد منا عندما يكون في المدرسة الثانوية سنة أو سنتين بعد الشهادة الابتدائية والذي يقول فيه : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال : «يا محمد : اخبرني عن الاسلام .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال : صدقت، هذا جبريل يقول للنبي صلى الله عليه وسلم صدقت، قال سيدنا عمر فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال سيدنا جبريل فأخبرني عن الايمان قال :

أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره ويزاد حلوه ومره والله أعلم

قال صدقت قال :

فاخبرني عن الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال :

فاخبرني عن الساعة :

قال النبي صلى الله عليه وسلم ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

فقال : فاخبرني عن إماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبث مليا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل قلت الله ورسوله أعلم، قال فإنه جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم.

هنا ملاحظة من ناحية صناعة الحديث أريد أن ألفت نظر المحدثين إليها. إننا تعلمنا أن هناك صنفين من الحديث :

الحديث القدسي.

والحديث العادي.

فالحديث القدسي هو الذي يتكلم فيه النبي صلى الله عليه وسلم باسم الله .. «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته حراماً بينكم فلا تظلموا».

والحديث العادي : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى.

ولم يبوب أي محدث بهذا النوع من الحديث الذي يأتي فيه جبريل فيخاطب النبي صلى الله عليه وسلم فلا هو بالحديث العادي ولا هو بالحديث القدسي فإنني أضع هذا السؤال وأطرحه أمامكم لعله يجد قريبا الجواب عنه.

طيب، يمكن للقائل أن يقول قلت ان الأمانة هي القاعدة الوحيدة في المعاملات التي جاءت كامارة إذا هي ضاعت لوقوع الساعة ولم أر هنا لفظ الأمانة أو أسمعه بكيفية جلية.

هناك حديث آخر رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قيل يا رسول الله وما اضاعتها ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« إذا أسند الأمر إلى غير أهله » فهذه هي الخلاصة التي تفسر لنا أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان، تضييع الأمانة قيام الساعة.

معنى الساعة :

للساعة معنيان : المعنى الميتافيزيقي حينما تقوم الساعة الساعة معروفة ومع الأسف العامة في بلاد الاسلام والشعوب في بلادنا السائرة نحو النمو الساعة عندهم هي أن تفنى الأرض ومن عليها والحالة هذه انها هي ساعة وساعات لكل بلد ساعة لكل نظام ساعة لكل حضارة ساعة متى اذا أسند الأمر الى غير أهله.

واذا أسند الأمر في بلد ما أو في قارة ما أو في مجموعة بشرية ما الى غير أهله فانتظر الساعة، وما هي هذه الساعة.

إن التاريخ قد علمنا ان الشعوب يمكنها أن تتغلب على عدة مصاعب ومتاعب، يمكنها بالأخص أن تتغلب على الصعاب والعراقيل المادية حيث ان الانسان خلق في هذه الأرض ليكافح كفاحاً مستمراً وجهاداً غير منقطع ولكن حينما ترى هاته الدول وهاته النظم نفسها أمام مشاكل عقائدية أو مشاكل مذهبية أو مشاكل خلقية، وحينما ترى الاعوجاج في سلوكها والبدع في معتقداتها والفسوق في أخلاقها ولا تريد أن تحارب هذا الاعوجاج ولا تريد أن تقوم تلك الأخلاق هناك تقوم ساعتها لماذا ؟ لأن الفساد لا يقاومه الا الطهر ولا يقاوم الفاسقين الا ذوو الاخلاق ولا يقاوم الخائنين الا المخلصون ولا يقاوم المبتدعين الا السنيون القائمون بالقسط.

فمتى أعطى الله لبلد قادة كانوا غير صالحين دينا ودنيا واكبهم أو واكب عصرهم فتن في أموال رعيتهم وفي اعراض رعيتهم وفي معتقدات رعيتهم فتصير اذ ذاك الرعية دون راع ف :

اذا كان رب الدار للطبل ضارباً

فلا تلم الصبيان في حالة الرقص

فاذا كان الراعي في حالة انحلال أو كان لا يعطي أي وزن للفضيلة الاسلامية أو للأخلاق الاسلامية فكيف تريدون أن يقاوم باسم الله وباسم كتابه وقول نبيه صلى الله عليه وسلم فتكون اذن المتناقضات.

اما اذا وهب الله لأمة ما أو مجموعة ما رؤساء مهذبين بآداب الاسلام حافظين لعهودهم ولضمائرهم

محافظين على لغتهم ودينهم وشعائرهم اذ ذاك ولو تأتي زوبعة من حيثما أتت، ولو تأتي جراثيم وكيفما كان نوعها لا يمكنها أبداً بأي حال من الأحوال أن تنجز جسد تلك الأمة أو تصيره غير قابل للاصلاح والتلقيح.

الأمانـة هـي المسؤوليـة :

فالأمانة إذن هي المسؤولية التي يتحملها كل واحد منا، والمسؤولية تنقسم إلى قسمين :

المسؤولية المطلوبة، والمسؤولية المفروضة.

كل منا يجد نفسه أمام نوع من المسؤوليات أمام النوع الأول، المسؤولية المفروضة إزاء ربه حينما يبلغ سن الرشد، المسؤولية البيتية حينما يتزوج ويكون له عيال، المسؤولية المهنية حينما يحترف حرفة خاصة لائقة به من الحرف غير العمومية هذه هي المسؤولية المفروضة أحببنا أم كرهنا، عندما نبلغ سن الرشد يجب علينا أن نتحمل مسؤولياتنا الدينية بمعنى أن ننهض بالأمانة الدينية وأن نقيم الشعائر الدينية وحينما نتزوج وحينما نقرر أن نتزوج يجب علينا أن نقوم بمسؤولية بيتنا وبالأخص مسؤولية أبنائنا من تربية وتغذية وكساء وإيواء.

وحينما نمتهن مهنة من المهن ونحترف حرفة من الحرف لابد لنا من أن نتحمل المسؤولية وإلا قضت علينا المزاحمة وصرنا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر غير محترفين ولا ممتهنين بل صرنا مساكين فقراء نمد اليد.

هذه هي المسؤوليات المفروضة وهناك المسؤوليات المطلوبة وهي المسؤوليات التي يطلب من فلان وفلان أو جماعة لما عرف فيها من كفاية ودراية أن تتحمل مسؤولية معينة في الزمن وفي المكان.

تحمل هذه المسؤولية في نظري أخطر من تحمل الأولى لأن الأولى :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً

فما حيلة المضطر إلا ركوبها ؟

فهي المسؤولية المفروضة فإذا أخذ الانسان مسؤولية ولم يتوفق في حفظ الأمانة في النوع الأول صار اثمه عليه، ومن معه ولم يواخذه المجتمع ويصير ذنبه ذنبا خاصا به وبمن يعوله.

أما المسؤولية الأخرى وهي المسؤولية المطلوبة تلك التي لا نجبر أحداً على أن يأخذ بيدها تلك التي لا تتطلب من الشخص جسداً قوياً ولا أعضاء قوية ولا عضلات للجهاد، انما تتطلب منه قلبا صافياً وذهناً مرتباً وضميراً مهنياً اذا هي حملت فلم يقم بها أحسن قيم فهي المسؤولية المصيبة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.

فلينتظر ذلك النظام أو تلك الدولة أو تلك القارة أو تلك المجموعة ساعتها، لماذا ؟ لأنه حينما يفقد الضمير المهني وحينما يفقد معنى الاحسان، والاحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه والاحسان وهو ما يصير بذلك الفتى الذي يظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله الذي قلبه معلق بالمساجد أي معلق بأخلاق الله وبأوامر الله تلك الأوامر التي ينصت إليها في المسجد والتي يتلقاها في المسجد والتي تتلى عليه في المسجد.

فإذا هو ضيع الاحسان وضيع الضمير المهني صار يتلاعب بالمسؤولية ويتلاعب بالأمانة لم ينحصر تلاعبه في شخصه لأن المصيبة هي أن ذلك التلاعب يجري مجرى الدم والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فحينما

يتلاعب بالنسبة لضميره لا يذهب إلى المكتب والحالة انه يجب عليه أن يذهب إليه، الا وتسامح مع نفسه صار من الطبيعي إذا هو لم يخف أن يوشي به أو أن يشتكي به أن يتسامح مع من هو دونه فإذا هو تسامح مع من هو دونه، تسامح هو الآخر مع من هو دونه فصار السلم من الأعلى إلى الأسفل بضياع الأمانة، وإذا هو تسامح المرة الأولى وكما يقول فقهاء الاجتماع لا أضر من الكأس الأولى، فإذا هو شرب الكأس الأولى من خيانة الضمير تسربت إليه جميع أنواع الانهيار والانحطاط وفقدان حاسة المسؤولية من محاباة ومحسوبيات ورشوة وما إلى ذلك مما يشين، بالطبع إذا فسد جهاز إداري هذا الفساد، ولم ينه عنه ولم يعزل أو يوقف أصحابه تسرب ذلك إلى الأجهزة الأخرى حتى يصير ذلك الاخلال بالأمانة ليس استثناء ولكن قاعدة فيصير الرجل ذو الضمير كأنه غريب في قومه وعن قومه على جزيرة فيها جنس آخر من البشر لا يتكلمون لغة ولا يستعملون مفردات واحدة ولا يطمحون إلى مطمح واحد.

وبالعكس إذا قاوم الانسان نفسه وقاوم شيطانه. والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى كرمنا أي تكريم حينما أعطانا وسائل الاختيار وحينما كتب في خاتمة ذلك الاختيار إما التضحية وهو الربح وإما عدم التضحية والتقهقر وهو الخسران واشرح قولي : لا خير في تضحية إذا لم تكن منطلقا لمعترك في نفس الانسان ما الشيء الذي تركه والاتيان به لا تعطيه نفس البشر أية قيمة لا يمكن أن يكون محل أو موضوع اختيار، أما الاختيار الحقيقي فهو الذي ينهك الذات وهو الذي يكون عراكا مستمرا في ذهن الانسان بين ما هو حلو وبين ما هو أحلى منه، وبين ما هو حسن وما هو أحسن منه، وبين ما هو سهل وما هو وعر وبين ما هو في طريق الجد وبين ما هو في طريق غير الجد.

ولكن أعطانا الله سبحانه وتعالى وسائل الاختيار، أعطانا ضميراً نقيس به الأعمال، وأعطى لكل واحد منا درجة في الادارة فمنا من يحارب نفسه ومنهم من يسالمها ومنهم من يجهلها تمام الجهل حتى لا تضع عليه أي مشكل أو أي اختيار وحتى لا يترتب عن ذلك الاختيار أية تضحية.

وهنا يجب التنبيه إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل من المجتمع الاسلامي مجتمعا فرديا وجماعيا في آن واحد جعل من المجتمع الاسلامي مجتمعا جماعيا حيث قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» حيث إنه صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار حيث أنه صلى الله عليه وسلم نصح ومازال ينصح أصحابه بالاتحاد والوحدة، ولكن في آن واحد جعل من المجتمع الاسلامي مجتمعاً فردياً بمعنى أنه جعل من كل واحد منا مرشدا يجب عليه الارشاد وتجب عليه النصيحة لذا لم تضع أمانة الاسلام.

الدين النصيحة :

فقد قال الأستاذ سيدي محمد الفاسي أن من معجزات الاسلام أن هناك حضارات وحضارات وصلت إلى قمتها ثم انهارت أما الحضارة الاسلامية فلم تنهر ففكرت الليلة كلها في الأسباب التي جعلت أن الجماعة الاسلامية بقيت كما بقيت عليه فوجدت أن الله سبحانه وتعالى أعطى لكل واحد منا الفرصة في أن يكون قاموس العرب بحفظ لغة واحدة في أن يكون مرشد المسلمين، لأن هناك ديناً واحداً ومعتقداً واحداً وفي أن يكون قائما بالوعظ والارشاد كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته واهل كل واحد منا لأن يقوم بل أوجب عليه أن يقوم بالنصيحة «الدين النصيحة» قالوا لمن يا رسول الله قال لأئمة المسلمين وعامتهم وهذا أعتقد هو السبب الأول الرئيسي في بقاء الدولة الاسلامية كما هي عليه لأنه بمثابة ثعبان يعض على مؤخره ولا أول له

ولا آخر سلسلة بدون انقطاع كلما طلعت عجلة نقول بأن عجلة التاريخ تكون تارة فوق وتارة تحت، أما هذه فعجلة متقطعة الأطراف أي عجلة واحدة كلها مسلمة من أولها إلى آخرها بلغة واحدة بمعتقدات واحدة بأخلاق واحدة بأمانة واحدة برعاية واحدة بتقدير واحد للمسؤولية وللرعاية تلك عجلة التاريخ فعلا ولكن كلما انحدر طرف منها تعالى الطرف الآخر، فقام بالواجب وأدى الأمانة، ريثما يصل به الركب ويلتحق به، وما تمكن الاسلام من هذا إلا لأنه جعل منا قيمين على الدين والدنيا، فلو أنه جعل منا رهباناً عليهم وحدهم أمانة مسؤولية رعاية المسلمين لكان الفساد ولكان الخراب والعياذ بالله.

ولكن الاسلام أناط بكل واحد منا أن يقوم بواجبه داخل بيته وأن يقوم بواجبه في مجتمعه وأن يقوم بواجبه إزاء السلطة وذلك إذا رأى منكراً أن يغيره اما بأن يقوله وإما بأن يسند نفسه كمثل يحتذى واما بأن ينصح أولي الأمر ويقول لهم إن المنكر قد رأيته بأم رأسي فلم أسمع به ولكن رأيته ولمسته بيدي فغيره.

هذه هي الأمانة في الاسلام مسؤولية خارجة عن نطاق التعامل الموجود في الفقه وفي المعاملات، الأمانة ليست هي المال الذي أتركه لك حتى ترده لي، لا.

الأمانة هي الوديعة التي حملها الله إيانا عندما استخلفنا في الأرض فمنا من أحسن الاستخلاف ومنا من ساء ومن الدول التي سبقتنا من أحسنت الاستخلاف ومنها من أساءت ونحمد الله على كوننا وجدنا في الاسلام وفي الدول الاسلامية ولا أقول العربية فحسب بل الدول الاسلامية دولا استخلفها الله بكيفية دورية حتى لم تضع وحتى لا تضيع الشعلة الاسلامية والحضارة الاسلامية.

المغاربة سواسية :

فمسؤوليتنا إذن هي ليست بمعنى جنس المسؤولية.

ليست المسؤولية الميتافيزيقية التي نسمع عنها ولا نراها، بل هي مسؤولية مجسمة لا يمكن أن يتهرب منها أي أحد اللهم إلا إذا كان مجنونا، أما إذا كان الانسان عاقلا ويستطيع التفكير فبإمكانه بل ومن واجبه أن يحتفظ في الحين بمسؤوليته الخاصة ثم بمسؤوليته العامة.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يزيد من إلهامه لنا حتى يمكننا أن نأتي بمثل ما آتينا به وذلك في توجيهاتنا التي كنا أصدرناها سنة 1965 والتي نقول فيها عن الجهاز الاداري :

كثر القيل والقال حول جهازنا الاداري الذي لصقت به اتهامات مسيئة إلى سمعته وبالتالي إلى سمعة البلاد.

وإذا كان الواجب يفرض علينا أن نعترف بأن لهذه الاتهامات نصيبا من الصحة فإن الانصاف يفرض علينا من جهة أخرى أن لا نصم جهازنا الاداري كله بالضعف وننسب إليه كل ما يتحدث به الناس من فساد، ونحن مصممون العزم على تتبع الداء واستئصال الفساد وقد أحدثنا لهذا الغرض محكمة خاصة للعدل للضرب على أيدي من تسول له نفسه التلاعب بأموال الدولة وتعاطي الرشوة واستغلال النفوذ.

وبالاضافة إلى ماهو منصوص عليه في قانون الوظيفة العمومية من حقوق الموظف ومن واجباته فقد وطدنا العزم على أن يسير جهازنا الاداري وفق المبادىء الآتية، ويتخذ التدابير المعروضة فيما يلي :

1 — المغاربة سواء فيما يتعلق بالشروط المطلوبة لنيل الوظائف والمناصب العمومية، وهذا المبدأ الصالح

قد اكتسى صبغة دستورية، واجتنابا لكل حيف أو محاباة يجب أن يباشر التوظيف بطريق المباراة طبق ما ينص عليه القانون، ويستتبع احترام المبدأ السالف الذكر أن يكون الموظفون سواء فيما يرجع إلى الأجور إذا كان مستواهم واحدا وعملهم متشابها.

ولا أريد أن أطيل عليكم قراءة هذا النص فهو موجود ورائج المهم هو أن نتشبع كلنا بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا، والمهم هو أن نصل إلى درجة الوعي، والمهم هو أن نصل إلى الهدف، فطرق الله مختلفة، منا من يتغلب عليه الوازع الديني طيب ! فليتقبل المسؤولية وليأخذها من باب الاحسان ومن باب الوازع الوطني، ولي اليقين بأن محبة الوطن ستؤدي به إلى محبة دينه.

ومنا من يحب حرفته لأنه يحب حرفته، وإذا أحب حرفته وأرضى ضميره فذلك إحسانه، ولي اليقين أن نهاية المطاف سوف تصل به إلى امتزاج الدين والدنيا والوطن، فإذا نحن أتينا لنصل إلى الأمانة وإلى إدارك الأمانة والقيام بأمانة، من أين أخذنا الطريقة وأي طريقة أخذنا طريق الضمير المهني طريق الوطن طريق الاخلاص إلى الله، كل هؤلاء الثلاث يجتمعون في مجتمع يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم : ما اجتمعت أمتي على ضلال.

والله سبحانه وتعالى اسأل أن يلهمنا جميعاً المقاييس الرشيدة والسليمة حتى يمكننا بتلك المقاييس أن نزن المسؤوليات بوزنها الحقيقي، وأن نعطيها مدلولها الحقيقي وأن نفوض منها ما نفوض إلى من هم جديرون به.

دعوات خالصة لله :

اللهم إنك قررت أن تحمل ابن آدم المسؤولية ولو حملها لم يكن ليحملها لولا أنك أردت أن يحملها، فقد حملت ابن آدم المسؤولية والأمانة وأعطيته من الجهاز الفكري والجهاز البدني ما هو كفيل بأن يجعله يقوم بمسؤولياته أحسن قيام.

اللهم اجعلنا من الذين استخلفتهم في الأرض فكانوا لك خلفاء.

اللهم اخلف أمتك الاسلامية كلها.

اللهم قلت وقولك الحق «ادعوني استجب لكم».

اللهم إنك تعلم الحالة التي تعيش فيها الدول الاسلامية، وتعلم النكبة التي نقاسيها، وتعلم المصيبة التي يعيشها إخواننا المشردون.

اللهم إنك جعلت من بيتك الحرام أولى القبلتين وثالث الحرمين، فهو بيتك ودارك وحرمك وحماك، فلا شك لي ولا شك لنا أنك ستدافع عن حماك، ولكن اللهم عجل بالدفاع وذلك بهدايتنا وباستقامتنا.

إنني سمعت يا الله تحليلات كثيرة للحالة التي يعيش عليها المسلمون، وكانت مع الأسف تلك التحليلات سواء في هذه السنة أو في السنوات الماضية تحليلات غير شافية، وغير كافية، حيث اننا كلما ذكرنا الحالة عللناها بعوامل خارجية وأجنبية عنا، والحالة هذه أن داءنا فينا، فاللهم داونا، اللهم رغم نكبتنا لم نرجع إلى الاخوة الصادقة فآخ بيننا.

اللهم إنك قلت ولا تنابزوا بالألقاب، ورغم النكبة والنكسة التي نعيشها ما زلنا نتنابز بالألقاب فطهر

قلوبنا.

اللهم إنك علقت آمال الملايين والملايين ومئات الملايين من قلوب المسلمين، وآمالهم على الذين وليتهم أمر عبادك. فجاز من يعتبر منا أنك أن تعلم في قلبه خيراً تؤته خيراً.

اللهم ببركة هذا الشهر، وببركة هذا الضريح الذي من كرامته أنه ضم ثلاثة من أعظم ملوك العلويين سيدي محمد ابن عبد الله، والحسن الأول، ومحمد الخامس.

اللهم إنك لم تجمع جثثهم عبثا ولم يكن جمعها من صدف التاريخ، بل إنها إرادة الهية أرادت أن تجمع بينهم لما بينهم من القرابة، والقربى، اللهم فبحرمتهم وببركتهم أمطر شآبيب رحمتك على والدنا ومحرر بلادنا.

اللهم إنك تعلم ما كان عليه من التقوى والزهد فأغدق عليه من فضلك وكرمك.

اللهم إنك تعلم أنه كان يحب كتابك فاعطه من الفضل والثواب على قدر محبته لكتابك.

اللهم إنك تعلم وتعلم بحق انه كان ان اقتضى الحال يضحي بأولاده وبنيه في سبيل شعبك المسلم، فآتيه يا الله على قدر التضحية التي كان من الممكن أن يقوم بها لو اضطر إلى ذلك.

اللهم بيض وجهه كما بيض وجه هذه الأمة.

اللهم إنه رفع شأننا وحرر بلادنا فحرره يا الله من مشاق يوم القيامة وارفع رأسه يوم القيامة واظلله تحت ظلك يوم لا ظل إلا ظلك، لأنه كان إماماً عادلا، وأحب في الله واجتمع على ذلك مع شعبه وتفرق معه على ذلك.

اللهم إنك تعلم أن قلبه كان معلقاً بالمساجد.

اللهم إنه كان إذا ذكرك خشى ومن خشيته يبكي وتفيض عيناه.

اللهم إني أعلم أنه كان يتصدق صدقة فكانت شماله لا تعلم ما تنفق يمينه.

اللهم انه راودته أكثر من جميلة حسناء ذات جاه، راودته الدنيا وراوده الاستعمار بالجاه والمال فرفض، وقال إني أخاف الله.

اللهم بهذا كله فأظله تحت ظلك يوم لا ظل إلا ظلك وامطر علينا شآبيب رحمتك، واجعلنا دائماً على هديه ونهجه، وخذ اللهم بيد شعبنا، وثبت أقدامنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وأهدنا إلى الصراط المستقيم، واجعلنا من الذين تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين.

ألقي بالرباط

الأربعاء 13 رمضان 1388 — 4 دجنبر 1968